الخـط العـربي في العصر الجاهلي النشــأة والتطــور (دراسة تاريخية)

أ- فتحي علي مخزوم احجيبه*

لم تصل حروف لغتنا العربية إلى صورتها الحالية إلاَّ بعد أن مرت بعدة مراحل من التطور عبر الزمن، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من جمال وتنسيق لحروفها؛ فالنقوش التي وجدت في أماكن متفرقة من جزيرة العرب وبلاد اليمن وفي بلاد الهلال الخصيب، تدل دلالة واضحة على تقارب اللغات السامية فيها لفظا ومعنى؛ حيث كان سكانها يتفاهمون فيما بينهم بلا واسطة (مترجم) كحال العرب الآن رغم تنوع اللهجات الدارجة فيما بينهم [1].

وذكر المولى عز وجل في كتابه الكريم وفي نصوص متعددة توضيحا صريحا أن العرب كانوا يعرفون القراءة والتدوين، فنجد في عدة آيات كلماتٍ وألفاظاً تخص ذلك مثل: (القلم – الورق – الكتاب – القرطاس – اللوح – الأسطر – الصحف) كما ورد في سورة القلم والطور والإسراء والبروج والأعراف والأنعام[2]، وفي الشعر الجاهلي الذي يعد من المصادر المهمة في تاريخ العرب قبل الإسلام ذكر القلم والألوكة والمالكة أي الرسالة والصحيفة والقرطاس والكاغد (الورق)[3].

قبيل البعثة النبوية الشريفة وبالتحديد في عقود الجاهلية القريبة من الإسلام لم تكن الكتابة شائعة عند العرب بقدر فصاحتهم، فهي مقتصرة في الغالب على تقييد العهود والمواثيق والأحلاف والصكوك التجارية التي كانوا يسجلونها في منقولات بسيطة كالجلد (الأديم) وعلي القماش (المهارق) وعلي عظام الحيوانات، وعل سعف النخيل (العسب) وعلي اللخاف (الحجارة) وربما عرفوا ورق البردي كالمصريين القدماء، وتداولوا عليه الكتابة في نطاق ضيق[4].

ذكر البلاذري أنه في بدايات الإسلام لم يكن في قريش من يعرف الكتابة سوي سبعة عشر رجلا [5]، وهي دلالة واضحة لعدم اهتمام العرب بها وتداولها في نطاق ضيق، وعندما جاء الإسلام كان أول أمر إلهي نزل من السماء "اقرأ"، وما كان من رسولنا الكريم إلا أن شجع الكتابة وحث عليها، وما حدث مع أسرى المشركين في معركة بدر ليس إلا دليلا قاطعا علي تشجيع العلم عندما حدد حرية الأسير الذي لا مال له بتعليم عشرة من صبيان المسلمين مقابل حريته[6]،وتشجيعه لـ ''زيد بن ثابت'' الصحابي الجليل بتعلم لغة اليهود حتي تُؤمن بوائقهم[7].

* كلية التربية – جامعة مصراتة.

تنوعت الكتابات القديمة للعرب بتنوع حروفها، وبالتالي بتنوع خطوطها، فهناك الخط المسند، والخط الأرامي، والخط المسماري (الأسفيني) واللحياني، والثمودي، والصفوي، هذه النقوش والكتابات تعد أمهات مصادر التاريخ الجاهلي، فهي الشاهد الوحيد لتلك الأيام البائدة، وقد وجدت هذه النقوش بلهجات مختلفة وفي أماكن متفرقة من شبه جزيرة العرب، وفي مصر وبعض الجزر اليونانية، وبلاد الحبشة [8].

تنوعت معارف النصوص المكتشفة، فالنصوص التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية أغلبها ذات طابع شخصي كإنشاء بيت أو بناء معبد أو بناء سور، وتكمن فائدتها في تدوين تاريخ العرب الجنوبيين بأنها أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، في حين النصوص التي وجدت في شمال شبه الجزيرة العربية والمكتوبة بالثمودية أو اللحيانية أو الصفوية عديدة وقصيرة وتتضمن أموراً شخصية وأسماء بعض الأصنام والمواضع وأسماء القبائل[9]،وقد كتبت هذه النصوص بطريقة الحفر بأداة حادة علي الحجارة والأخشاب والمعادن[10].

سنحاول في هذا البحث توضيح مراحل التطور الذي حدث في حروفنا العربية في العصر الجاهلي، وعلى الرغم من أن الدراسات والبحوث عن تطور الحروف العربية عديدة إلاَّ أنه أراد الباحث من خلال هذه الدراسة عرض الآراء المختلفة والكيفية التي تطورت بها تلك الحروف القديمة مع مرور الزمن حتى وصلت إلى ماهي عليه الآن في لغتنا الجميلة. ونستعرض فيما يلي الخطوط العربية القديمة، والتي وجدت آثارها في أماكن متفرقة في بلاد العرب.

أولاً: الخط المسند:

استخدم هذا النوع من الخطوط في جنوب شبه الجزيرة العربية عند رقعة جغرافية قامت فيها أعرق وأقدم الحضارات العربية والمتمثلة في مدن معين وسبأ وقتبان وحضرموت، وأوسان وحمير، فقد استخدم عرب هذه الدول حروف الخط المسند في كتاباتهم، وانتقل منها إلى شمال وشمال غرب شبه الجزيرة العربية، وما يتصل بها من جنوب الشام بعد أن أضافوا عليها (أي الحروف) بعض التعديلات مع مدى إتقانهم لها وخرجوا منها بحروف، ثم بخطوط إقليمية جديدة كالخط اللحياني والثمودي والصفوي[11].

ليس هناك تحديدٌ صريحٌ للمدن اليمنية الجنوبية التي بدأت فيها كتابة الخط المسند، فهناك من يرى أن دولة معين(1300–630 ق.م) هي السباقة في هذا المضمار، بينما رأي آخر ذكر أن دولة سبأ(800– 115 ق.م) هي من اخترع حروف هذه الكتابة، إلا أن هناك من يرجح أنها دولة قتبان

(400 ق.م – بعد ميلاد المسيح عليه السلام)هي التي بدأ فيها كتابة الخط المسند، وقدر زمن عمر هذه الكتابة إلي أواخر الألف الثاني ق.م، أو أوائل الألف الأول ق.م[12].

ربما يرجع أصل التسمية لكلمة مسند إلى الأوامر الملكية القديمة التي كانت تبدأ عندهم بعبارة "سطر وذنمسندن" أي سطروا أو اكتبوا هذه الكتابة، أو أن الفواصل القائمة بين كل كلمة وأخرى في هذه الكتابة على اعتبار أن كل كلمة فيه تكاد تستند على الخط القائم الذي سبقها والخط القائم الذي يليها[13].

تضمنت حروف الخط المسند تسعة وعشرين حرفاً جامداً كتبت أفقياً من اليمين إلى اليسار، وأحياناً تبدأ بسطر من اليمين ويبدأ الذي يليه من اليسار إلى اليمين، حروفه منفصلة غير متصلة ومتجاورة، هذه الحروف لا يتغير شكلها سواء كتبت من بداية الكلمة أو وسطها أو آخرها، كل كلمة تنفصل عن الأخرى في سطرها الأفقي بخط قائم مع إلحاق حرف وصل بأول الكلمة المتصل بها، مع إضافة أنه لم يتضمن حروفاً لينة أو حروف حركة ولم تشكل حروفه ولم تنقط، وعبرت عن التعريف والتنوين بإضافة نون أخيرة في نهاية الاسم[14]، والملحق رقم (1) يوضح حروف الخط المسند.

في شمال شبه الجزيرة العربية وجدت أربع لهجات عربية قديمة، ثلاثة منها كتبت بالخط المسند (المأخوذ من جنوب الجزيرة العربية) هذه اللهجات هي الثمودية واللحيانية والصفوية، واللهجة الرابعة كتبت بالخط الآرامي، وهي اللهجة النبطية، وفيما يلي توضيح لهذه الخطوط [15].

ثانيا: الخط الثمودي:

نسبت حروف هذا الخط إلى قوم ثمود الساكنين بوادي القرى (بين الحجاز والشام) ونظرا لموقعهم الجغرافي المميز انتفعوا بحضارات الشام والحضارة المصرية القديمة وحضارات اليمن السعيد؛ فخطهم اشتق أساساً من الخط المسند الذي يحتمل أنهم أخذوه من منطقتي ديدان ولحيان(شمال الحجاز)أو بالاتصال التجاري المباشر مع اليمنيين، ثم طعموه ببعض خصائص الخط المصري[16].

النصوص الثمودية المكتشفة وجدت نماذج منها في تبوك والطائف وهضبة نجد وشبه جزيرة سيناء، وشرق الأردن وشرق دمشق، وفي أجزاء من اليمن، وهي دلالة واضحة على مدى انتشار قوافلهم وكثرة اتصالاتهم التجارية وخاصة في فترة قبيل الميلاد وبعده [17].

النقوش الثمودية قصيرة لا تتعدى أسماءهم وأدعية لآلهتهم وبعض النصوص التجارية، نقوش صعبة القراءة خالية من علامات الإشباع والحركات والتشديد، مكتوبة بضمير الغائب، وكثيراً ما يحذفون منها بعض الحروف كالنون في كلمة (ابن)، ونجد عندهم صيغة المثنى إلى جانب صيغة الجمع، ونفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر وحروف العطف، وهي

التراكيب الصرفية والنحوية للخط المسند الجنوبي، أما أداة التعريف الشائعة عندهم فهي "الهاء" وهم يتساوون في ذلك مع اللحيانيين والصفويين [18]، والملحق رقم (4) يوضح الخط الثمودي.

ثالثا: الخط اللحياني:

يرجع تسميته إلى بني لحيان الذين ذكروا في نقوشه؛ فقد وجدت نقوش اليمانيين متناثرة في شمال الحجاز بمنطقة العُلا، وحاضرتهم تسمى دادان، وقد اختلف الباحثون في زمنهم هل قبل الميلاد أم بعده، وهناك من يأخرهم حتى القرن الخامس الميلادي[19].

توثقت علاقة اللحيانيين (الذين انصهروا مع ظهور الإسلام في قبيلة هذيل) بدولة معين اليمنية كمصالح تجارية، ونزلتها جاليات معينية نقلت إليها الخط المسند الجنوبي الذي طور وحور إلى الخط اللحياني، وكان من أوائل الخطوط المعروفة لنصوص عرب شمال شبة الجزيرة العربية [20].

هذا ولقد وجدت في نقوش اللحيانيين نفس الصعوبات التي وجدت في نقوش الثموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد، في حين كانت أداة التعريف هي "الهاء" كالثموديين تماماً، وقد يستعملون "أل" للتعريف أو اللام وقد يجمعون الهاء واللام معاً ككلمة "هلحمى" بمعنى "الحمى" كذلك يلحقون بالماضي تاء التأنيث، من أسمائهم الموصولة "من" و"ما" و"ذو"، ونجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع، فيجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون، ويجمعون الإناث بالألف والتاء، ومن حروف الجر عندهم الباء واللام وفي ومع وقبل وبعد وتحت، وينفون بـ"لا"[21]، والملحقان رقم (2)،(3) يوضحان نقوشاً للخط اللحياني.

رابعا: الخط الصفوي:

يرجع السبب في تسميته بهذه التسمية إلى جبل الصَّفاة القائم في شرق حوران ببادية الشام، حيث وجدت نقوش توضح هذا الخط في الحرّة الواقعة بين جبل الصفا وحوران والتي أطلق عليها النقوش الحرّية؛ ووجدت نقوش أخرى تتضمن الحروف الصفوية في مواضع أخرى كجنوب دمشق والصالحية على نهر الفرات [22].

اشتقت الحروف الصفوية من حروف الخط المسند الجنوبي، ولذا وجد العلماء بعض الصعوبات في تشابه رسم حروفها؛ فالباء تشبه الظاء، والخاء تشبه التاء، وتشبه اللام النون، والهاء الصاد، وعند الكتابة قد يبدأ الكاتب في الكتابة من اليمين إلى اليسار والعكس، وبالنسبة لأداة التعريف الشائعة عندهم، فهي الهاء مع الاستعمال القليل جدا لأداة التعريف "ال"، وقد عثر على نقوش لهم

قصيرة تتضمن وثائق تمليك أو أدعية لآلهة، ونستطيع القول أن اللهجة الصفوية هي ضرب من ضروب نمو اللغة العربية وتطورها[23]، والملحق رقم (4) يوضح الخط الصفوي.

خامسا: الخط النبطي:

أسس الأنباط دولة قوية في جنوب الشام واتخذوا من مدينة البتراء حاضرة لهم[24]، فقد ذكرت المصادر التاريخية مدى تأثرهم بالخط الآرامي المشتق من الخط الفينيقي، وقد وجدت نقوشهم متناثرة في شمال غرب شبه الجزيرة العربية وبالتحديد في مناطق الحجر ووادي موسى وتيماء، ووجدت أيضاً نقوش لهم في جنوب غرب بلاد الشام وفي شرق الأردن، وفي شبه جزيرة سيناء[25].

وقد تعلم الأنباط الخط الآرامي من موضعين، من إمارة إدوم بعد أن استوطنوا في أراضيها بعد أن تغلبوا على نواحٍ منها كهضبة إدوم وجبل سعير شرقي العقبة وجنوب شرق الأردن، وأيضاً من دويلة دمشق الآرامية الأصل التي اتصلوا بها عن طريق التجارة واستفادوا من حضارتها وحاولوا أن يحتلوها أكثر من مرة [26].

كانت حروف الخط الآرامي مفردة، وكلماتهم متعاقبة دون فواصل بينها، فقام الأنباط بتطوير هذا الخط وذلك بأن قاموا بوصل حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض، وفصلوا كل كلمة والكلمة التي تليها في سطرها الأفقي[27].

بدأ الأنباط في وصل الحروف الآرامية وذلك بأن وصلوا بين حرفي الباء والراء في كلمه "بر" بمعنى "بن" لكثرة استخدامها في نسب الابن لأبيه، ثم طبقوا ذلك في أغلب الكلمات الثنائية الأخرى مثل يد، من... الخ، وفي بعض الكلمات الثلاثية المستعملة بكثرة في النصوص مثل كلمة ملك، وطبقوا ذلك على كثير من كلماتهم الأخرى خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي مع استثناء بعض الحروف التي تركت مفردة مثل "الألف والواو"[28].

استخدم الأنباط أربع وسائل في ربط الحروف بعضها ببعض، وهي سند الحرف على ساق الحرف الذي يليه، وربط الحرف بذيل الحرف الذي يليه مثل "لا" وأخيراً ربط حروف الكلمة من أسفلها بربط واحد، واستخدم الأنباط أربعة وسائل في الفصل بين كل كلمة في الجملة والكلمة التي تليها، وهي التفرقة بين شكل الحرف إذا أتى في أول الكلمة وبين شكله إذا أتى في وسطها أو في نهايتها وإطالة ذيل الحرف النهائي للكلمة، والفصل بين الكلمة والكلمة التي تليها بفراغ بسيط "قليل" [29]، والملحق رقم (5) يوضح نقشاً للخط النبطي.

تضمنت اللغة النبطية بعض القواعد المعروفة في لغتنا العربية كإضافة "ال" التعريف واستخدام الفاء والواو للترتيب، والاستثناء بكلمة "غير"[30]، واختلفوا مع اللحيانيين والثموديين والصفويين

باستخدام "الـ" للتعريف بينما هم استخدموا "الهاء"، وجاروا الأراميين في تعريفهم للكلمات بإلحاق ألفٍ في نهايتها، فمثلا يكتبون كلمة القبر "قبرا"، وإضافة الواو في الكلمة دلالة على تنوينها، وقد يكتفون باللام فقط في الأسماء المعرفة باللام ككتابة "عبد البعل "بصورة "عبد لبعل" وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع [31].

تطورت الحروف النبطية مع مرور الزمن حتى وصلت إلى الحروف العربية التي انتشرت في بلاد العرب في العصر الجاهلي قبيل الإسلام، واختلفت الروايات في الطريقة التي تم بها ذلك، فذكر البلاذري أنها انتقلت من الأنبار للحيرة* ومنها إلى مدن الحجاز[32]،وذكر في رواية أخرى أن الحروف العربية تطورت بعد أن انتقلت من الحميريين إلى الحيرة حاضرة المناذرة ومنها إلى أهل الحجاز[33]، وذكر أيضاً أن العرب أخذوا خطهم عن أهل مدين على اعتبار أن الأنباط سكنوا في نفس المنطقة التي كان يسكنها قديماً أهل مدين، ونظراً لقرب منطقتهم من بلاد الحجاز أخذ العرب الخط النبطي وليس خط أهل مدين بالخصوص[34].

كل ما ذكر في كيفية تطور الخط النبطي إلي الخط العربي اعتبره شوقي ضيف ضرباً من ضروب الوهم، واستند في ذلك على اعتبار أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية تزخر بالثقافة السريانية؛ فكان خطهم سريانياً وليس نبطياً، وذكر أن التطور الذي حدث كان نتيجة نمو وتطور في الحجاز نفسها لمكانتها الدينية وازدهارها التجاري فأخذ سكانها الخط المعيني أولاً وطوروه إلى خطوطهم اللحيانية والثمودية والصفوية، ولما ظهر الأنباط طوروا الحروف الآرامية، وبعد أن سقطت دولتهم علي يد الرومان في العام 106م، تفرق أهلها في داخل جزيرة العرب وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطي، فهجر العرب الخط المعيني واستحسنوا نظيره النبطي الذي طوروه إلى خطهم العربي، وقد استند في ذلك على النقوش التي عثر عليها في شمال الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق كإثبات ودليل على تطور الخط النبطي إلى الخط العربي [35].

وفي الختام، فإن الرحلة طويلة من التطور للغتنا العربية في حروف هجائها من المسند إلى النبطي، اندمجت فيها الحروف المتفرقة، وكونت جملاً مفيدة ظهرت جلية وواضحة في العصر الجاهلي من خلال أشعار العرب قبيل الإسلام.

ملحق رقم (1) يوضح حروف الخط المسند مقارنة مع الحروف العربية

ملحق رقم (2) يوضح نقشاً للخط اللحياني

ملحق رقم (3) يوضح نقشاً للخط اللحياني
(المرجع نفسه، 233/8)

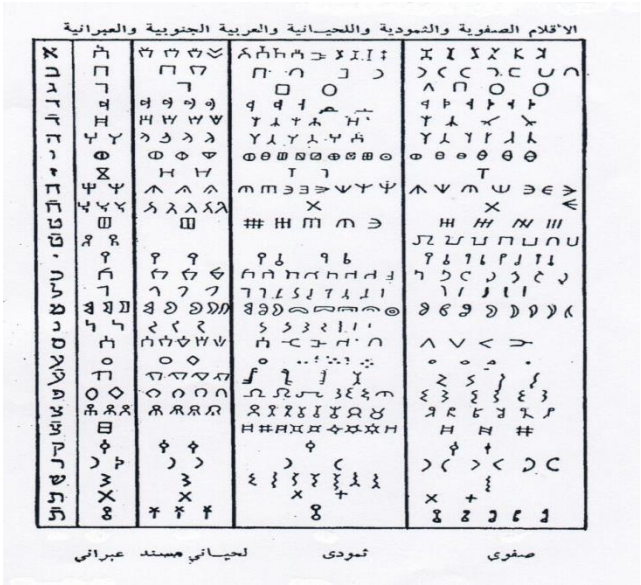

ملحق رقم (4) يوضح أنواعاً متعددة من الخطوط القديمة
(المرجع نفسه، 8/ 241)

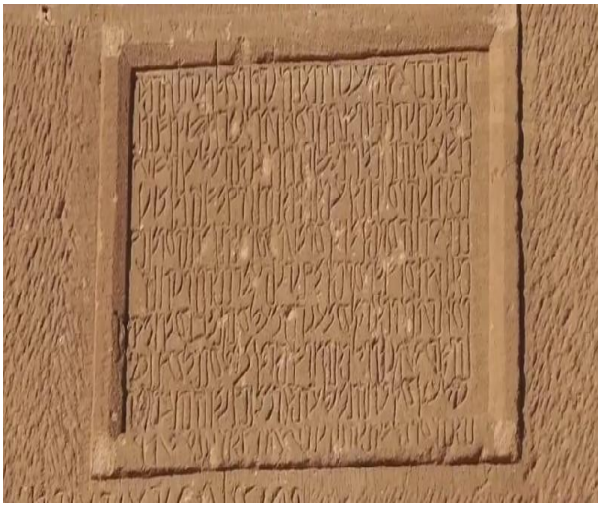

ملحق رقم (5) يوضح نقشاً للخط النبطي
(نقلاً عن موقع الألكتروني :
(مملكة الأنباط https://ar.wikiped.org/wiki/)

الهوامش:

(1) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، د.ت)17/1.

(2) الوافي، محمد عبد الكريم، منهج البحث في التاريخ، ط 2، دار الكتب الوطنية (بنغازي، 1998م) ص185-186.

(3) أحمد، علي، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب (حلب، 1997م) ص11.

(4) محمد الوافي، المرجع السابق، ص 187.

(5) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق عبد الأمير مهنا، دار اقرأ (بيروت، 1992م) ص609.

(6) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبدالحميد النميسي، دار الانتصار (القاهرة، 1981م) 100/1.

(7) البلاذري، المصدر السابق، ص 612.

(8) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط 2 (بغداد، 1993م) 44/1.

(9) المرجع نفسه 46/1

(10) طقوش، محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس (بيروت، 2009م) ص 110.

(11) صالح، عبد العزيز، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مطبعة محمد عبد الكريم حسان (القاهرة، د.ت) ص27.

(12) المرجع نفسه، ص 28.

(13) المرجع نفسه، ص 30.

(14) المرجع نفسه، ص 28-29.

(15) ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي"، ط 28، دار المعارف (القاهرة، 2008م) ص 111. كذلك محمد طقوش، المرجع السابق، ص 109.

(16) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 140.

(17) نفس المرجع والصفحة.

(18) ضيف، شوقي، المرجع السابق، ص 112.

(19) المرجع نفسه، ص 33، 112.

(20) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 143.

(21) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 113.

(22) نفس المرجع والصفحة.

(23) المرجع نفسه، ص 115.

(24) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 145.

(25) ضيف، شوقي، المرجع السابق، ص 115.

(26) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص31.

(27) نفس المرجع والصفحة.

(28) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 31.

(29) المرجع نفسه، ص32.

(30) نفس المرجع والصفحة.

(31) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 116.

* الحيرة بلدة قديمة بقرب شاطئ دجلة لا تبعد كثيرا عن الكوفة، كانت حاضرة المناذرة في الجاهلية =ينظر القزويني، زكريا بي محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت، 1998 م) ص 186.

(32) البلاذري، المصدر السابق، ص609.

(33) ابن خلدون، محمد بن محمد، المقدمة، دار ابن الهيثم (القاهرة، 2005م) ص338

(34) عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 33-34.

(35) ضيف، شوقي، المرجع السابق، ص 34-35.

المصادر والمراجع:

أولاً/ المصادر:

- ابن خلدون، محمد بن محمد، المقدمة، دار ابن الهيثم (القاهرة، 2005م).
- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الأمير مهنا، دار اقرأ (بيروت، 1992م).
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت، 1998م).
- المقريزي، تقى الدين أحمد بن علي، إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبدالحميد النميسي، دار الانتصار (القاهرة، 1981م).

ثانياً/ المراجع:

- أحمد، علي، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، منشورات جامعة حلب (حلب، 1997م).
- أمين، أحمد، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (القاهرة، 2012م).
- زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ط2، منشورات، دار مكتبة الحياة (بيروت د.ت).
- صالح، عبدالعزيز، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مطبعة محمد بن عبدالكريم حسان (القاهرة، د.ت).
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي "العصر الجاهلي" ط28، دار المعارف (القاهرة، 2008م).
- طقوش، محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس (بيروت، 2009م).
- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2 (بغداد، 1993م).
- الوافي، محمد عبدالكريم، منهج البحث في التاريخ، ط2، دار الكتب الوطنية (بنغازي، 1998م).

ثالثاً/ المواقع الإلكترونية:

- (مملكة الأنباط https://ar.wikiped.org/wiki/)